ثالثاً : نحو اتجاه إسلامي لدراسة الإنسان

لقد اعتبر الإنسان نفسه سيد هذه الأرض منذ وجوده عليها وبعد أن طفق يواجه أسرار الكون من حوله بالمزيد من العبر والعبقرية ابتداء من التركيب الذري للمادة إلى ديناميات المجرات الفكلية واللامتناهية في بعدها وبعد خلق عالم من الراحة والدعة لم يحلم به في قصصه الخيالية ، بعد كل ذلك يبدو من المتناقض أن الإنسان مازال يسأل "من أنا"؟.

ويبدى الكثير من علماء النفس ، الذي يسألون أنفسهم "ما الإنسان"؟ بعضاً من عدم الارتياح حيال الصورة الإنسانية التي أوجدها علم النفس ، فهي تبدو جزئية للغاية ، وجامدة للغاية وتعوزها الوحدة والفردية أحياناً وتعوزها الشمولية والدينامية أحياناً أخرى ، كما يغيب عنها الجوهر دائماً ، ولذا كانت بعيدة وغير حقيقية فيما تقدمه عن صورة الإنسان الذي نعرفه.

ويُجمع الكثير من علماء النفس الآن، على أهمية العناية بالجوانب غير الآلية في الشخصية والسعي إلى الغوص في أعماق النفس الإنسانية لفهم فطرتها لكي نعيد للإنسان فطرته وإنسانيته.

والإنسان كما ظهر من منجزات علم النفس نعرفه بصور وبأشكال مختلفة ومتباينة ومتضادة وفقاً للمنظور الذي أرثاه منه علم النفس بخلفيته وبثقافة عصره .. فمن يقرأ كتابا في التحليل النفسي ، وينتقل إلى كتاب أخر من وجهة نظر السلوكية أو من منطلق مجالي أو ظاهري يجد نفسه ينتقل أمام نماذج مختلفة للإنسان ، فإنسان التحليل النفسي يختلف بل ويتناقض بدرجة أو بأخرى ، عن إنسان السلوكية وعن إنسان المجالية ، وغير ذلك من التعدد والتناقض الذي يصعب معه لم أشتات الإنسان أو جمع أشلاءه ، كما تناولتها مدارس علم النفس ونظرياته بالتشريح وبالتحليل، الأمر الذي قد يصعب معه الخروج بصورة كلية عن ماهية الإنسانية وجوهرة الحقيقي.

وارتباطاً بهذه النماذج وبفروعها المتعددة ارتسم الإنسان بصور مختلفة في عقول الناس وفي مختلف مجالات الحياة، بل ولقد سيطرت هذه الصورة على فهم طبيعة الإنسان في أماكن وفترات مختلفة.. فهو الإنسان "المريض" في التحليل النفسي ، وهو الإنسان "الحيوان" في السلوكية وهو الإنسان "الموقفي" في المجالية أن صح هذا التجريد. صور متباينة للإنسان ، وما لهذا من مردود خطير على الحياة الإنسانية ذاتها ، لأن فهم الإنسان بتصور معين يحدد ويفترض "التوقعات" المنتظرة من

الإنسان ، والتي بناء عليها تتحدد المسالك والإجراءات وتخطط الجهود والمناشط.

ويبدوا أن لمنهج البحث دور رئيسي في وجود تلك الصورة حيث ضاقت النظرة إلى طبيعة الإنسان ويقول في هذا الشأن سيد عثمان (١٩٧٨) كان من قدْر الإنسان العلمي ، أو قدْرة مع علم النفس المعاصر بصفة خاصة أن ضاقت النظرة إلى فطرته وتحددت وشذبت من هنا وقُلمت من هناك لا لأنها ذاتها فقيرة محدودة ، نحيلة هزيلة ، ولكن مثل هذا التشذيب والتهذيب والتقصير والتقليم كله جرى في علم النفس المعاصر حتى تتناسب فطرة الإنسان أو ذاته مع طرق دراسة الإنسان وأساليبها ومناهجها كما رأى نفر غير قليل من مؤسسي علم النفس المعاصر.

كانت فطرة الإنسان أول قربان قدمه علم النفس على محراب العلمية الحديثة وانتهى الأمر بالنظرة إلى الفطرة الإنسانية أو الطبيعة البشرية بأن تطابقتا أو كادت مع الطبيعة المعاصرة وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولن نعطى الفطرة البشرية حقها من الفهم إلا إذا توجهنا إليها ودرسناها بمنهج متحرر من التعصب المنهجي ، والعصبية العلمية

والعصابية الموضوعية ،لا بد أن يكون ولاؤنا للحقيقة أقوى إلزاماً لنا من ولائنا للوسيلة ويجب أن يكون ولاؤنا للفهم القريب من الحقيقة وللفطرة البشرية أصدق من ولائنا لمنهج علمي يساء فهم حدوده وتنقلب فيه الوسائل والأدوات والتخيلات غايات.

فطرة الإنسان أغلى علينا علمياً من المنهج العلمي ، إلا إذا تحرر بحيث يكون منهجا علمياً مناسباً لموضوع دراسته ،ولا ينبغي أن نضحي بالفطرة الإنسانية على مذابح علمية ، لا أقول ضيقة بل زائفة.

من ذا الذي يستنفذ لنا فطرة الإنسان مما تعرضت له من محاولات الاغتيال باسم العلم والامتهان باسم المنهج والابتذال باسم الموضوعية ، لقد حاول عملية الإنقاذ هذه نفر من النفسانيين الغربيين المعاصرين الذين تحرروا من أسر العلمية الغالبة والموضوعية المغالية. أفلا يجدر بنا نحن النفسانيين العرب والمسلمين المعاصرين أن نحرر أنفسنا أولاً من اعتناق الفكر العلمي النفسي المغاير لفكرنا ، ومنهجنا ونظرتنا ، وتصورنا، لا إنكارا له ولا إقلالا من شأنه ولكن اعترافاً منا ، كما اعترف أصحابه هم أنفسهم، اعترافاً يصاحبه أو يعقبه تحرير نظرتنا إلى الفطرة البشرية وغيرها من موضوعات نفسيه لا تفهم إلا بمبدأ

تحريرها أو تحرير فكرنا ومنهجنا واعتقادنا وتحرير ثقتنا بأنفسنا أولاً([1]).

ويبحث العلماء الآن عن تصور جديد للإنسان ، وهم يؤكدون أننا نقع في خطر كبير عندما نتحدث عن الامبريقية كتعبير عن مدخل الحواس ، فالحواس ليست سوى أحد مداخل المخ البشري ، وليست كل مداخله ، وما بعد الحواس أصبح مدخلات تجريبية قابلة للقياس والإدراك غير الحسي أصبح معترفاً به.

ولا ينبغي أن ننظر للعقل باعتباره مجرد مخزن للمعلومات وتسجيلها وإعادتها ولكن ننظر له باعتباره كياناً متطوراً يعيد إبداع نفسه بعملية دورية متصلة تظهروتختفي في شكل استثمار للمعلومات على مستويات مختلفة.

وعلينا أن نستقي مفهومنا عن الإنسان من المصادر المتعددة للمعرفة ، وعلى المستوى البشري للمعرفة يجب أن تتكامل العلوم ابتداء من دراسة المخ وحتى جميع فروع العلوم الاجتماعية ، وبدون الوصول إلى مثل هذه المفهوم الشامل للإنسان لن يحقق العلم شيئاً ولا يمكن أن تتصدى العلوم الاجتماعية وحدها لمثل هذا المفهوم.

([1]) سيد عثمان : الإثراء النفسي ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨.

التصور "الوضعي – السلوكي" للإنسان :

لقد شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين نمواً كبيراً في فلسفة العلم، وقد برزت في تلك الفترة فكرتان كان لهما أثر هام في العلوم الإنسانية بشكل عام وعلم النفس بشكل خاص هاتان الفكرتان هما "الوضعية المنطقية"و"الإجرائية".

أما "الوضعية المنطقية" فهي اتجاه فلسفي يقوم أساساً على التجربة ، تحقيقاً للدقة والتحليل المنطقي للغة العلماء ولغة الحديث ويعدها المصدر الوحيد للمعرفة ، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطيات تلك المعرفة وتنظيمها ، وكلمة وضعية معناها أنه يرفض أية تفسيرات ميتافيزيقية ، والمنطقية مقصود بها أن هذا الاتجاه يحاول أن يكون متماسكاً ومتحرراً من التناقض الداخلي. أما الإجرائية فهي شبيهة بالوضعية المنطقية إلا أنها أكثر من التناقض الداخلي. أما الإجرائية فهي شبيهة بالوضعية المنطقية إلا أنها أكثر اهتماماً بمسألة القيام بالملاحظات العلمية وحصر التعبير العلمي فيما يمكن أن يقال عن وقائع قابلة للملاحظة.

لقد كانت فكرتان هامتان حقاً ، ولكنهما تجاوزتا كثيراً دورهما في علم النفس ، وأن الإدانة الحالية لعلم النفس ، ترجع إلى الإصرار على

التمسك بالمواقف الذي تمثله فكرتا الوضعية المنطقية والتجريبية ، ولـذا فقد أصبح الجو الفكري الذي نتج عنهما جواً مثبطاً للتقدم العلمـي فـي جوانب عديدة من علم النفس.

وترجع العديد من التصورات الراهنة في علم النفس إلـى تلـك الخلفية الفلسفية، بل وتعود بتصورها إلى أصول تلك الفلسفات. فالكائنات العضوية عامة ومن بينهما الإنسان لا تتوفر لديها أي معرفة فطريـة ، فهي تولد وعقولها صفحة بيضاء ، وتتكون المعرفة مـن الإحـساسات الأولية كالسمع والبصر والشم واللمس وغيرها عن طريق الارتباطـات التي تحدث بينها عن طريق الاقتران المكاني أو الزماني ، والتي تـؤدي بدورها إلى أفكار أكثر تعقيداً تحت نفس شروط الاقتران ، ثـم طـورت أفكار "أرسطو" على يد مجموعة من الفلاسفة الإنجليـز أطلـق علـيهم "الترابطيون" في الفترة (١٦٥٠ – ١٨٥٠) من أمثال "هـوبز" و"لـوك". و"جيمس مل"و "جون ستيوارت مل" و"هارتلي" ، وانتقلت تلـك الأفكـار الفلسفية إلى أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر حيث امتزجت بـالفكر البرجماتي العلمي ، وتبلورت في التربية عن طريق الاهتمـام بوظيفـة السلوك وفائدته. وتمخضت تلك التصورات عن ظهور الاتجاه الـسلوكي في علم النفس على يد "جون واطسون" وزملائه من أمثـال "ثورنـديك" و "جاثري" و "هل" و "ميل" و"سبنسر" وفي النهاية على يد "سكنر" الـذي أعتبر الأكثر شهرة وتأثيرا (١).

---

(١) (أنظر : جيمس ديز وآرون ، سيكولوجية التعليم "ترجمة فؤاد أبو حطب وآخرون" الأهرام : القاهرة ١٩٨٣ ص١٦ – ١٧).

المسلمات التي تقوم عليها النظرية السلوكية :

تقوم النظرية السلوكية على أساس عدد من المسلمات يمكن إيجازها فيما يلي([1]) :

١- أن علم النفس هو علم السلوك ، والسلوك هو جميع أوجه نشاط الفرد التي يقوم بها والتي يمكن ملاحظتها ، وهو علمي موضوعي يعتمد على البيانات التجريبية والدلالات التي يمكن ملاحظتها وليس في هذا العلم مجال لمفاهيم كثر الحديث عنها في علم النفس "يقصد مفاهيم التحليل النفسي".

٢- أنه يمكن اختزال السلوك الإنساني إلى عمليات فسيوكيمائية ، كما يمكن تفسير سلوك الإنسان في ضوء ما يحدث من تغيرات فسيولوجية ونيرولوجية ، ويصبح السلوك عبارة عن تنظيمات من وحدات صغيرة يعبر عنها بالرابطة (م ـــ هس) والارتباط بين م، س ارتباط فسيوكيمائي.

٣- يسلم السلوكيون بالحتمية النفسية بمعنى حتمية الاستجابة إذا تعرض الإنسان لمثير ما ، وأنه من الممكن التنبؤ بنوع الاستجابة

---

(١) (أنظر : عبدالسلام عبدالغفار مقدمة في الصحة النفسية ٧٢١٩ ، ص٣٣).

التي سيثيرها مثير معين ، وكذلك من الممكن التعرف على ما أدى إلى استجابة معينة من مثيرات.

٤- العوامل البيئية هي العوامل الرئيسية التي تعمل على تكوين شخصية الفرد. ولذا فالشخصية عندهم عبارة عن التنظيمات والأساليب السلوكية المتعلمة والثابتة نسبياً والتي تميز الفرد عن غيره، فالعادات هي محور الشخصية. ويعبر "سكنر" عن هذه النقطة في لقاء أجرى فيول : والجديد الذي قدمته هو إظهار كيف أن البيئة تؤثر فعلاً على السلوك ، وأننا ما أن ندرك أهمية التاريخ الشخصي ، حتى يقل ميلنا إلى دراسة العقل أو الجسم لنحصل على تفسيرات(١).

وهكذا يرى علم النفس الوضعي الإنسان باعتباره كائن حي راد للفعل – كما تعتبره السلوكية حيوان عاقل أو رهينة عاجزة حيال ما يقع من تأثيرات تؤدي إلى تشكيله ، فهو يشبه الموضوعات غير الحية أيضاً كالماكينات أو الآلات ، ويشير "سكنر" ،١٩٨٠ صـ٢٠١) إلى ذلك بقوله: "الإنسان آلة بمعنى أنه نظام معقد يسلك بطرق لها قواعد ، وقوانين ، غير أن التعقيد فيها تعقيد غير عادي .. أن قدراته على التكيف

---

(١) (انظر : مقابلة مع ب.ف سكنرفي ، الثقافة العالمية ، عدد إبريل ، ١٩٨٨ صـ١٠٢).

مع ظروف وإجراءات التعزيز ربما تحاكيها وتقلدها الآلات آخر الأمر ، ولكن هذه المحاكاة لم تتم بعد ، وسيظل النظام الذي تتم محاكاته بهذه الطريقة نظاماً فريداً بطريقة أو بأخرى". ولا تدعى المدرسة السلوكية أنها تنظر إلى الإنسان نظره إجمالية ، بل أن مهمتها تقتصر على فحص الوقائع الصغيرة تحت الشروط المضبوطة ، فكليات السلوك غير حقيقية ولذا يعمد العالم السلوكي إلى إغفالها أما الجوانب الجزئية والفيزيائية والشبه ميكانيكية والمنظمة والمنطقية والتي يمكن ضبطها هي التي تؤدي إلى نتائج أكثر ثباتاً ورسوخاً.

وتهتم المدرسة السلوكية بالكشف عن القواعد والقوانين العامة للسلوك الإنساني، فمن الجدير بالاحترام والعلمية أن نوجد المتوسطات والإحصاءات المختلفة للعينات بدلاً من دراسة أسلوب حياة الشخص.

وتتمثل المشكلة الحقيقية في تصور العالم السلوكي أنه لا يعرف (أو نادرا ما يعرف) أنه حبيس نظره فلسفية معينة ، وكذلك حبيس فترة حضارية معينة ،ولذا فقد ظلت السلوكية حبيسة لفكره "الحتمية" عند "جون لوك". وعلى الرغم من عدم التمسك الصارم لعلماء النفس الأمريكيين بالحتمية الصارمة إلا أنهم مازالوا يؤكدون على أهمية الاقتران الشرطي وعلى التأكيد بأن معتقدات الناس وقيمهم يتم تناولها بواسطة المجتمع من

خلال الثواب والعقاب. وهكذا فالسلوكية تأخذ فكره الحتمية وشبه الميكانيكية بالنسبة للإنسان كقضية مسلم بها، ويجب أن لا تخضع للاختبار أو التمحيص.

وأسوأ ما يمكن أن يقال عن الوضعية بشكل عام والسلوكية بشكل خاص ، أنها قد قَصرت نفسها على "التمركز حول الطريقة" أكثر من التمركز حول "المشكلة" فقد أوجدت صفاً من الوقائع المتفرقة الجزئية على حساب النظرة المترابطة للشخص الإنساني ككل ، ولا شك أنه من غير الإنصاف توجيه اللوم إلى النظرة الوضعية والسلوكية في العلوم النفسية والاجتماعية على الورطة التي وضعت الإنسانية فيها ، على الرغم من حدوث ذلك بالفعل ، فالوضعية أو السلوكية ليست إلا انعكاساً أكثر من كونها سبباً للنظرة الجزئية الذرية للشخصية(١).

ويضيف "كولمان" بأن العلوم السلوكية بما فيها علم النفس لن تزودنا بصورة عن الإنسان القادر على صنع الديموقراطية والعيش فيها بل وضعت في أيدينا علم نفس لكائن عضوي فارغ empty Organism يتحرك بالحوافز ويتعدل بالظروف البيئية فلم يجذب انتباه أصحاب

---

(١) انظر : جوردن البورت ، "الشخص في علم النفس" صـ٦١ ، في : علم النفس الإنساني ، فرانك ، ترجمة طلعت منصور وآخرون ، الأنجلو المصرة ، ١٩٧٨.

النظام السلوكي أساساً إلا كل ما هو صغير وجزئي ، كل ما هو خارجي وآلي ، كل ما هو طرفي وقائم على تحين الفرص([1]).

تصور التحليل النفسي للإنسان :

وتشبه الصورة في بعض جوانبها ما ذهبت إليه المدرسة الوضعية ، فالإنسان كائن شبه آلي راد للفعل محكوم بثلاث قوى طاغية تتمثل في : الهو والانا والانا الأعلى ، ويتوافق الإنسان بقدر ما يستطيع أن يوازن بين تلك القوى داخل هذا المثلث ، وليس لعقله سوى اعتبار ضئيل ممآل سعيه للفشل ، طالما أنه غاص في الدفاعات. وإذا توجه إلى الدين للبحث عن الحقيقة فيه فلا بديل سوى العصاب ، وفي هذا الصدد يقول فرويد في كتابه "محاضرات تمهيديه جديدة حول التحليل النفسي" إن الظواهر الدينية تفهم فقط من خلال نموذج الاضطرابات العصبية المألوفة تماما. والتي تعتبر صدى لإحداث ماضيه طواها النسيان ، ترجع إلى التاريخ البدائي للعائلة الإنسانية .

وتعمل الحتمية فعلها أيضاً في تعميق ذلك التصور المتشائم للإنسان ، فهو محكوم بالقوى اللاشعورية في الشخصية. حيث أعتقد "فرويد" أن

---

(١) انظر جيمس كولمان : الآراء المتعارضة في طبيعة الإنسان الأساسية صـ٩١ ، في : علم النفس الإنساني إعداد فرانك سيفيرين ، ترجمة طلعت منصور وآخرون ، ١٩٧٨.

الطاقة الجنسية هي المحرك ، لسلوك الفرد ، وأنه يمكن تفسير معظم جوانبه على أساس أنها تعبير أو أعلاء للدوافع الجنسية ، كما أعتقد "فرويد" أيضاً أن معظم العمليات النفسية يتم حدوثها دون أن يكون الفرد واعياً بها ، أي أنها عمليات لا شعورية ، وبذلك تتمحور طبيعة الإنسان كلها حول مفهوم "اللاشعور – وخاصة الهو" باعتباره مخزن الغرائز والحفزات البدائية والصراعات المؤلمة ومشاعر الذنب المختلفة وجميع ما يهدد حياة الفرد (١).

ويرى فرويد أن الاضطرابات الانفعالية تحدث نتيجة لفقد الإنسان سيطرته على الغرائز والحفزات غير المقبولة اجتماعياً أو نتيجة للقلق الناتج عن الشعور بالتهديد المستمر من هذه المحتويات اللاشعورية والتي كبتت في مواقف الصراعات النفسية الجنسية التي واجهها الفرد في طفولته (عقدة أوديب ، وعقدة اليكترا). وهكذا يجد الإنسان نفسه أمام طريقين، أما إشباع تام لغرائزه – ومن ثم البربرية – أو إحباط جزئي لغرائزه ومن ثم النمو الثقافي للإنسان.. فتقدم الإنسان يستلزم الكبت أوالعصاب. ويقوم التحليل النفسي على عدد من المبادئ التي تعتبر بمثابة

---

(١) انظر : عبدالسلام عبدالغفار ، مقدمة في الصحة النفسية ، دار النهضة العربية صـ٢٨.

مسلمات يقبلها كل من يعتقدون في صحة التصور التحليلي، ومن أهم هذه المسلمات ما يأتي:-

١- مبدأ اللذة : ووفقاً لهذا المبدأ ، فالإنسان كما يراه فرويد حيوان باحث عن اللذة "فالإنسان لا تحركه سوى الرغبة في الحصول على اللذة ومحاولة تجنب الألم".

٢- مبدأ الواقع: وهو مبدأ مكتسب يعمل وفقاً لحدود الواقع على عكس ما يهدف إليه مبدأ اللذة. فالإنسان لا يبحث فقط عن اللذة ، ولكنه أيضاً مرتبط بحدود الواقع الذي يكشف له "أنه في لحظة ما عليه أن يؤجل لذاته العاجلة المباشرة من أجل لذة أخرى آجله أكثر أهمية من تلك العاجلة".

٣- مبدأ الثنائية أو الازدواجيه : وحياة الإنسان وفقاً لهذا المبدأ عبارة عن مجموعة من القوى المتعارضة دائماً ويظل الإنسان في حالة من التجاذب والتنافر بين تلك القوى ومن هنا كان التوتر أمر مصاحب لوجود الإنسان وعليه أن يعمل من أجل خفض هذا التوتر.

٤- مبدأ أجبار التكرار : وفي هذا المبدأ يؤكد "فرويد" دور العادة وتكرار الخبرات في سلوك الإنسان ، فالإنسان يميل بطبيعته إلى

تكرار الخبرات القوية الماضية التي يمر بهـا. فمـا أن يعتـاد الإنسان على القيام بنشاط وبنفس الطريقة لدرجة تجعلـه يؤديـه دون كثير من التفكير الشعوري. فالإنسان فـي نظـر "فرويـد" "حيوان تسيره العادة" وطالما أنه يميل إلى تكرار كـل مـا هـو ناجحا فإنه كلما زاد تكراره له ، أصبح أسلوبه أكثر ثباتاً وجموداً في حياته العادية(١).

وجهة نظر حول أفكار فرويد والاتجاه التحليلي في علم النفس:

يعتبر فرويد من أشهر علماء النفس ،وقد تمتعت نظريتـه بانتـشار واسع كمجال للبحث وكأساس لعلاج المرضى النفسيين.

أما الآن فلم يعد لكثير من مبادئها النظرية فائده عملية كبيرة للمدرسين أو لغيرهم ورغم تمسك العديد من الباحثين في ميدان علم النفس – بأفكار فرويد فلم تلقى تلك الأفكار تقديراً كبيـراً مـن بعـض الـسيكولوجين والسلوكيين منهم خاصة ، إذ ترى السلوكية أن آراء فرويد مـا هـي إلا

---

(١) انظر : سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية ١٩٧٥ – ٧٩٥ : عبدالسلام عبـدالغفار : مرجـع سابق صـ٢٥ – ٢٧.

افتراضات تفتقد الدليل العلمي القوي وأنها نظرية تتقصها الدقة على حد تعبير هدسون سنة ١٩٦٦م(١).

ولقد وصفت الطرق التي استخدمها فرويد بأنها طرق غير علميـــة ، وأنه أعتمد في دراساته على عينات من حالات خاصة بالإضافة إلـــى أن عدد من شفى باستخدام التحليل النفسي من تلك الحالات كان ضـــئيلاً لا يتجاوز نسبة حدوثها بالصدفة.

ولقد بالغ فرويد كثيراً في عرض ما توصل إليه من اكتشافات حتى أن مصطلحات نظريته قد أثرت في لغتنا اليومية كالعقد والكبت وغيرها(٢).

ويجب الإشارة إلى صعوبة التحقق من آراء علماء الـــنفس التحليلـــي وذلك لأنهم لم يولوا اعتباراً كبيراً لقدرة الإنسان على التعديل والتشكيل إذ أنهم أكدوا أن المعالم الرئيسية لشخصية الفرد توضح في السنوات الأولى للعمر وأنه محتوم عليه أن يعيش بها كما هي بقية حياته.

وفضلاً عن ذلك فقد أكدت الدراســـات الإنثروبولجيـــة أن الـــسلوك العدواني يمكن تجنبه وأنه ليس أمـــراً حتميـــاً فـــي طبيعـــة الإنـــسان. (أنظر : Benedict, R, 1973).

---

(١) (Hudson, L.Contrary Imaginations, Methuen, London, 1966).

(٢) أنظر : تشايلد : علم النفس والمعلم (مترجم) سنة ١٩٨٣ صـــ٢٤٩ ، تصدر من مؤســـسة الأهرام القاهرة.

كما أشار التحليليون المحدثون إلى أهمية تأثير الظـواهر الاجتماعيـة كمصدر للدافعية. والأسئلة التي أثارها أنصار التحليل النفسي أمثال "أدلر ويونج " ما زالت في حاجة إلى إجابة حتى الآن ، والتي تعد مـن أهـم المآخذ على المفاهيم المستخدمة في النظرية ومنها على سبيل المثال:

- هل تصدر دوافع الإنسان عن نفس الأصل الغريزي الثابت والذي لا يقبل التغيير ؟ وهل الجنس والعدوان هما بالفعل أساس كـل دوافـع الإنسان؟ وهل للدوافع اللاشعورية مثل تلك الأهمية التي أعطاها لهـا فرويد "حيث يعتبر أساليب سلوك الإنسان تعبيـرات حتيمـة لتلـك التكوينات اللاشعورية؟".
- وهل السنوات الخمس الأولى في حياة الإنسان لها ذلك الأثر الثابـت في تكوين شخصيته ؟ وما الدور الـذي تلعبـه خبـرات الطفولـة المتأخرة؟ وهل عقدة أوديب ومراحل النمو النفسي الجنـسي أشـياء عامة بين جميع أفراد الجنس البشري أم أنها تظهر لدى بعض الأفراد وفي بعض الثقافات ؟.
- وهل دور الانا هو حقيقة دور التابع لرغبات الهو والخاضع لها؟([1]).

---

(١) أنظر : سيد غنيم ، سيكولوجية الشخصية في ، دار النهضة ١٩٧٥م صـ٥٥٣.

وفيما يلي بعض أوجه النقد التي وجهت للمنهج المستخدم في نظرية فرويد:-

١- القصور الواضح والخطير في الخطوات التجريبية التي استخدمها فرويد في إثبات صدق فروضه.

- فقد أجريت الملاحظات في ظروف تفتقر إلى الضبط ، فتسجيل ما يقوله – وما يفعله المرضى ساعة العلاج اعتمدت فقط على ذاكرة فرويد.. ولا شك أن عوامل النسيان والتحريف والحذف وغيرها يضعف من عامل الثقة فيما سجله فرويد من معلومات.

- ويؤخذ على فرويد قبوله لما يقوله مرضاه ، دون التحقق من صحته ، عن طريق استخدام أي شكل من أشكال البرهان الخارجي ، بالاعتماد على معلومات يحصل عليها من الأقارب أو المعارف أو الوثائق أو نتائج الاختبارات أو غيرها من الوسائل.

- تجنب فرويد للمعالجة الرقمية واستخدام الأساليب الإحصائية يجعل من المستحيل التحقق مرة أخرى مما وصل إليه.. وعلى سبيل المثال وجد فرويد علاقة بين جنون البارنويا "جنون العظمة والاضطهاد" والجنسية المثلية .. فكم عدد الحالات؟ وهل ثبت صحة تلك النتيجة لدى

محللين نفسيين آخرين ؟ وما هي الضوابط التي يمكن عن طريقها تعميم مثل هذه النتيجة علي مرضى آخرين؟.

- كما أن علماء النفس ينتقدون استخدام فرويد في تفسيره لجوانب الشخصية لمفهومات غامضة أقرب إلى التصورات الخرافية منها إلى المفهومات العلمية ، منها تشبيه فرويد للشخصية بالمسرح الذي تتصارع فيه قوى الانا والهوى والانا الأعلى وكأنها قوى لها كيانات خاصة.. ومنها العقد النفسية الموجودة في اللاشعور التي تحاول أن تخرج إلى مستوى الشعور لتثير القلق والاضطراب في الانا.

وهكذا لا يمكن لمثل هذه التشبيهات والتصورات أن تقييم بنيان نظرية علمية .. تساعد في فهم وتفسير مظاهر السلوك أو التنبؤ به.

الإنسان في التصور الإسلامي :

نكرر القول مع المخلصين بأن ما نسعى إلى صياغته من تصور ليس حجة على الإسلام فالإسلام ليس مقيدا بما نقول ، وما نقدمه وما نستعين به من اجتهادات العلماء والزملاء المسلمين هي مجرد اجتهاد تحتاج إلى المزيد من الجهد ولذا نردد مع الأستاذ الدكتور سيد عثمان (١٩٨٦م ، ص٢٩) قوله "أيها النفسانيون والتربويون من قومنا ، الدنيا

من حولنا ، والأمانة في قلوبنا والصدق أمام أعيننا ، كلها تطالبنا أن نتحرر فكراً ووجداناً ، منهجاً وأسلوباً ، لنحرر إنساننا ببحث علمي حر ، ليس المهم في العلم نتائجه ، فمصيرها إلى غيب مجهول لا ندري كيف سيتعامل معها ، إنما المهم هو صحة المنهج ، وسعته ومرونته والاهم هو استقامة الفكر ، وسلامة النيه ووضوح القصد ،وعلى الله قصد السبيل".

لماذا تصور جديد لعلم النفس :

يتضح لنا من العرض السابق للتصورات والنظريات التي تناولت الطبيعة الإنسانية أن واضعو تلك النظريات يختلفون فيما يقدمونه من تصورات ونظريات باختلاف خلفياتهم أو أطرهم الثقافية كما يختلف أصحاب النظريات فيما بينهم من حيث ما يهتمون به من جوانب الشخصية ، وفي نوع البيانات التي يجمعونها ومصادر البيانات وهم أيضاً فوق ذلك كله يختلفون فيما يضعونه من مسلمات. وليس لدينا من الوسائل التي تمكننا من الحكم على صدق هذه النظريات سوى بعض المحكمات التي قد تكون نظرية أكثر منها تطبيقية وهذه النظريات جميعها هي نتاج فكر أفراد معينين ، فهي ذاتيه بمعنى الكلمة وهي نتاج فكر أفراد عاشوا في ثقافات مختلفة ، وتأثروا بعوامل ثقافية متباينة ، وإعدوا

إعدادا مختلفاً ونشعر بذلك من التناقضات الواضحة فيما تقدمه النظريات المختلفة عن الإنسان ، الأمر الذي قد يصعب معه الخروج بصوره كلية وشاملة عن ماهية الإنسان وجوهره الحقيقي.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل: هل نحن في حاجة إلى تصور جديد حول الطبيعة الإنسانية ؟ مما لا شك فيه أن هناك أسباباً متعددة تجعلنا في أمس الحاجة إلى أن يسعى كل من العلماء المسلمون للمساهمة في تقديم تصور يعمل على مساعدة الإنسان "إنسان هذا العصر" على فهم نفسه ومحاولـــه تحريرها من قيود الحتميات التي قيدتها بها النظريات السابقة ومـــساعدته على التعرف على حقيقة وجوده والسعي لربط نفسه بالغايـــات الكبـــرى التي خلق من أجلها حتى يتسنى له الإيمان بالآلة الواحد والتوجه لعبادته ، بدلاً من الالتجاء إلى عبادة الأصنام التي يصنعها لنفـــسه ثـــم يقـــوم بعبادتها بعد ذلك ، ومن أهم الأسباب التي تبرر أهمية حاجتنا إلى تصور جديد ما يلي:-

السبب الأول يرجع إلى:

- عجز النظريات التقليدية والتي بين أيدينا عن تفسير الكثير من أوجه سلوك الإنسان:

وهذا لا يعني أننا نرفض كل ما جاء به علم النفس المعاصر رفضاً مسبقاً يشمل كل التصورات وجميع النتائج ففي ميدان علم النفس المعاصر الكثير من النتائج التي تستحق أن نعتني بها ونعمل على توظيفها والاستفادة منها خاصة ما يتسق منها ويتفق مع تصوراتنا عن الإنسان ، على أن نترك النتائج والجزئيات التي لا تنتظم في سياق متكامل مع تصورنا عن الشخصية الإنسانية أو ما يرتبط منها بقشور سطحية حول تلك الشخصية ، وعلى سبيل المثال فهذا هو "التحليل النفسي" ما الذي قدمه في ميدان نمو علم النفس وتطوره؟ فلا يزال ما قاله "فرويد" منذ نصف قرن يردده البعض دون تغيير سوى ازدياد في الغموض ، وتأتي السلوكية لترفض كل ما قال به التحليلين ويَدعون الموضوعية والتزام القواعد العلمية.

وقد أغفل الفرويديون والسلوكيون معاً أو تغافلوا عن دراسة جوانب أساسية في حياة الإنسان ورفضوا الحديث عن إرادة الإنسان وحريته في ممارسة هذه الإرادة ، وقدرته على الاختيار كما أهملوا

الحديث أيضاً عن قدرة الإنسان على السمو والالتزام بدين معين ، وهذه جميعاً جوانب هامة تحدد طبيعة الإنسان (أنظر: عبدالسلام عبدالغفار ١٩٧٣ ص٢٨).

السبب الثاني يرجع إلى : صعوبة نقل نموذج أو إطار عن الشخصية من ثقافة إلى ثقافة :

حيث لا يستطيع المفكر أو واضع النموذج بمعزل عن أثر العوامل الثقافية التي نشأ فيها ويعيش في ظلها والتي تؤثر بدورها فيما يدركه وما يهتم به فالحقيقة الموضوعية الواحدة تعلمنا أن إدراكنا لها يختلف باختلاف العوامل والظروف التي يعيش في ظلها كل منا ، ولهذا يصعب علينا قبول نموذج عن الشخصية وضع في ثقافة مغايرة.

- بالإضافة إلى ما سبق ومع الأخذ في الاعتبار بالأخطاء والعيوب التي وقعت فيها التصورات السابقة عن الإنسان فنحن على يقين بأننا لا نستطيع أن ندرس النفس الإنسانية بمعزل عن الخالق سبحانه وتعالى فهو أعرف بما خلق [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] إلا أنه وفي غياب الحقيقة سوف لا نستطيع أن نعرف طبيعة الإنسان ولن نتمكن من تحديد المعايير التي يمكن أن تحكم سلوكه إلا وفقاً للغايات الكبرى التي تجعل لوجود الإنسان معنى وأهمية وتجعل من الحياة

وسيلة بدلاً من كونها غاية ، وهكذا يسترد الإنسان كرامتـــه فيرتقـــى بنفسه ليصبح بحق خليفة الله في الأرض.

أهداف علم النفس في ضوء التصور الإسلامي :

يشير تيرنر (Turner, 1960) في الكلمـــة الافتتاحيـــة لمـــؤتمر الرابطة الكندية لعلم النفس بقوله " أن علم النفس يذخر بالمحرمات وأحد هذه المحرمات ما يتعلق بالأهداف القصوى أو الغائية Ultimate Aims وأكثر ما يتضح في هذا الصدد شيوع الجو الفلسفي الخاص بالوظيفـــة المنطقية أو الأمبيريفية العلمية مع إنكار للغيبيات ، وهو إنكار لا طائـــل منه ويستمر إلى أن يقول : "بما أن الأهداف الغائية أو القيم تلقـــى ذلـــك الاهتمام الضئيل فإني أستطيع أن أذهب إلى القول ، بأننا بدونها قد ترديا في حالة من الضياع سواء في حياتنا المهنية أو الخاصة"(١).

الهدف الأول : الفهم (الوصف والتفسير) :

فهم السلوك الحاضر ودوافعه كما هي لأن الفهم أساس المنطق العلمـــي لفهم نفس الإنسان في مظاهرها الجسمية والروحية والإدراكية والانفعالية بكل وسائل البحث المفيدة من ملاحظة واســـتبطان وتجريـــب واختبـــار وقياس لمعرفة " البناء النفسي".

---

(١) ح. تيرنر : علم النفس ماله وما عليه ، في : علم النفس الإنساني ١٩٧٨ صـــ٤٠٨.

الهدف الثاني : التنبؤ :

مقدرتنا على التنبؤ الذكي للسلوك المتوقع لأن ذلك يعيننا على تقديم الوقاية قبل العلاج ، فالإنسان عموماً في تكوينه ونموه النفسي يسير غالباً على السلم التتبعي في المقدمات والنتائج خلال سني العمر. وهذا واضح في الحالات التطبيقية في مجالات الحياة وهل نستهدف في نطاق مجتمع معين أن ننشئ نموذجاً يمكننا من التنبؤ والتحكم ، أعتقد أن هذا مستحيل ففارق كبير بين أن نكتشف قواعد اللعبة وبين أن نتنبأ بنتائج المباراة ، وأن نتحكم فيها وفضلاً عن الاستحالة ،هل نحن بصدد هدف نبيل أو مقدس يستحق كل هذا العناء والإصرار للوصول إليه؟

ماذا يعني مثل هذا الهدف عملياً إذا تحقق؟ أنه الغاء لحيوية المجتمع المتجددة وتحويل المجتمع إلى آلة كبيرة محكومة الحركة مضبوطة الأزرار أنه تسريع لقيام الدولة الشمولية وتكثيف لوظائفها.

الهدف الثالث : التوجيه (الضبط الذاتي) :

وهو هدف خلقي في أهميته – الضبط الذاتي – للدوافع والمظاهر والغايات – فالإنسان وهو الكائن الحي الذكي المسئول عليه أن يتحمل مسئولية دوافعه في أثارتها وتوجيهها وفي نواحيها السلوكية المختلفة سواءً أو انحرافاً وفي أهدافه سموا أو هبوطا.. أنه مسئول ، وحيث أن

الدوافع والميول هي عمياء وهو جاء فلدى الإنسان فطرة الله (ذكاء) يقوم بعملية (الضبط الذاتي) أو (التحكم العاقل) ، وهناك فرق كبير جداً بين عملية الكبت التي تنكر الدوافع أو تخفيها لتسبب أمراضاً واضطراباً وبين (عملية الضبط) التي توجه الطاقة الفطرية للإشباع في المجال والزمان والمكان المناسبان لذلك.

الهدف الرابع :السمو الإنساني:

"أن خير من استأجرت القوي الأمين" (الآية – ٢)

بمعني توجيه كل الدوافع والإنفعالات والعمليات العقلية لمرضاة الله تحقيقا للسمو الإنساني النبيل المتصل دائماً بالله تعالى. وإشباع الدوافع الفطرية ما دام إشباعها سبيل مشروعه هي خير وقربى، فإشباع دوافع الأكل والنوم والجنس والتملك والفرح والحزن والرضا والغضب والتعلم والتذكر وهى مناشط ما دامت في سبيلها المشروع وابتغاء تجديد النفس لعمل الخير فهي عبادة لله تعالى كما تعتبر أساساً أنماط العبادة المأثورة من صلاة وصوم وصدقات وعبادة أصلاً وبذلك تصبح الحياة الانفعالية والإدراكية والسلوكية للنفس الإنسانية عبادة مستمرة ومتجددة ومتنوعة في التصور الإسلامي كما قال الله تعالى "وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" الذاريات (٥٥ – ٥٦).

المُسلّمات النظرية التي يقوم التصور المقترح :

المُسلّمة عبارة عامة تمثل موقف المفكر الأساسي حيال قضية فكرية عامة. وتقبل المُسلّمة إذا ما ثبت صحة الفروض التي تستنبط منها وفيما يلي المُسلّمات التي يمكن أن يقوم عليها التصور المقترح.

١- الإنسان مخلوق لغاية: وهذه الغاية يحددها الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى ((وإذا قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة)) البقرة: آية٣٠ ، وتتحدد دلالة تلك الغاية فيما يلي :-

أ- أنه خليفة الله الخالق للكون ولابد للخليفة أن يكون مزوداً بوسائل الخلافة فسُخرت له السموات والأرض وقضى الله تعالى أن تكون إرادته مقضيه بإرادة الإنسان وأفعاله وقد نفخ الله فيه من روحه لذا فالإنسان يمتاز بجوانب ربانية تصله بالله تعالى.

ب- أن خلافة الإنسان تتمثل في أعمار الأرض بكل خير وسعادة، وليس في محاولة خرابها وتدميرها وتحويل حياة البشر إلى حروب وقلق وصراع.

ج- أن خلافة الإنسان على الأرض تأتي عن جدارة حيث أعدُّه الله سبحانه وتعالى عن طريق العلم والتعلم لامتلاك أسباب تلك الخلافة حيث علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها.

وتشير هذه المسلمة الرئيسية والأساسية في هذا التصور إلى أن دراسة النفس الإنسانية وما يتصل بها لا يمكن أن تتم بمعزل عن خالقها ،عن الله سبحانه وتعالى ، وعلى الإنسان الباحث أن يستمد دائماً من نور الحق الهداية والاستفتاح حتى لا يضل الطريق ولا ينحرف عن السواء.

٢- يختلف الإنسان عن غيره من المخلوقات اختلافاً أساسياً ودراسة الفطرة الإنسانية تؤكد هذه الحقيقة (وسوف نعاود تناول موضوع الفطرة بالتفصيل في محاولة التعرف على الطبيعة الإنسانية) ولهذا فالإنسان مخلوق متفرد فهو ليس حيواناً وليس ملاكاً له من القابليات عضوية تكوينية تبدأ من قابليته لانتصاب قامته وحتى تفرد تكوين جهازه العصبي وقابليات معرفية تمثل فيها اللغة الوادي الخصيب في جنه فطرة الإنسان التي فطره الله عليها ، باللغة يتحدد معنى الإنسان وباللغة تتنور جنبات و جود الإنسان، بالإضافة إلى قابليته للتجريد بما تحمله من عطاء في قابليات المرونة المعرفية والتوجيه الذاتي وقابليات اجتماعية وأخلاقية وتتمثل في قابليات البقاء الفردي مع الوجود الاجتماعي لقابلية

التعاطف وقابليات الحاسة الأخلاقية وقابلية الإيثار(١) ، مضافا إلى ذلك كله القابليات الجمالية وقابليات الفكاهة وقابليات التدين التي تبرز مدى أهمية المُسلّمة الأولى في تحديد أي تصور أو إطار لدراسة الإنسان.

٣- للإنسان إرادة (مخلوق فريد):

الإنسان مخلوق مسير في الوقت ذاته فالإنسان حر في كل ما يتعلق بمدركاته وحيز وجوده وهي حرية تقوم على إدراك طبيعة الحياة التي يحياها ودوره فيها ، وحريته هذه أهم ملامح إنسانيته. وعلى الإنسان أن يدرك بعقله أن حريته محدودة وتحد هذه الحرية مواقف لا يستطيع فيها اختيار ويستتبع إعطاء الإنسان حرية الاختيار أن يتحمل المسئولية في كل ما يتاح له فيه من خيار ، وعليه أن يعي ويدرك أن هناك مساحة لا يمتلك فيها الاختيار وهنا فعليه أن يقبل قضاء الله وخياره ويرضى ويقتنع بأنه هو الخيار الأفضل له وتصبح القضية أنه مُسَيَّر لا يستطيع بإدراكه المحدودة وإرادته القاصرة على تخطي مساحتها وحدودها في الاختيار. (معنى الإنسان يتعدى حدود وجوده المكاني).

---

(١) أنظر : سيد عثمان :الإيثار النفسي ، مرجع سابق.

٤- الإنسان مخلوق ذو طبيعة مزدوجة :

فالإنسان قبضه من طين الأرض ونفخه من روح الله ويصبح الحديث عن الإنسان حديثاً قاصراً ويصبح النموذج المقدم نموذجاً مشوها إذا ما تحددت طبيعة الإنسان بتكوينه الجسماني العضوي والبيولوجي والعصبي فقط. ونحن لا ننكر ذلك الجانب الذي يمثل الطين والتراب، أديم الأرض بل نؤكد على أهميته ولكن نضيف أن دراسة الإنسان لا تتم إلا بالتأكيد على جانبه الروحي، فهذا الجانب هو الذي جعل الإنسان أشرف وأكرم الكائنات الحية فهي التي ارتقت به إلى السماء.

"وإذ قال ربك للملائكة أني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" سورة ص (٧١ - ٧٢).